حين انقلب العقل على نفسه ... صار المعصوم فيلسوفًا!

علي حمزة زكريا

شبكة الفكر
alfeker.net

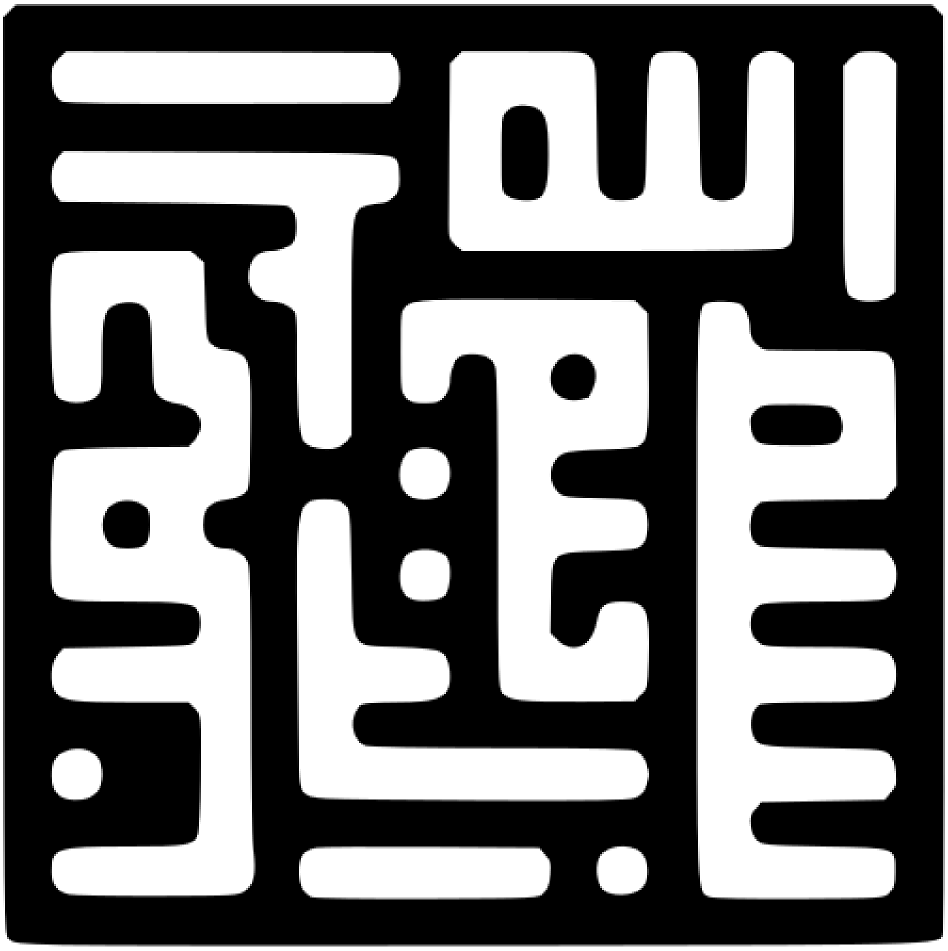

العنوان: حين انقلب العقل على نفسه صار المعصوم فيلسوفًا!

الكاتب: علي حمزة زكريا

سنة النشر: سبتمبر ٢٠١٩ م / محرم ١٤٤١ هـ

نسخة إلكترونية ــ ٧٠ صفحة

alizk85@Gmail.com

الفهرس

تمهيد 6

استكشاف الفلسفة 10

تأسيس الجناية 20

إعداد سلاح الجريمة 26

الجريمة 33

آثار الجريمة 39

الدين والفلسفة 46

الثوب الجديد للشخصيات التاريخية 54

الختام: المنهج والفلسفة 63

المصادر 68

تمهيد

كان يفترض أن يكون مقالاً، فصار كتيّباً! وكان يفترض أن يكون مشاركة في عيد الغدير، فعاند الزمان وأسعفته الظروف. ولكنه مجهود حصل، وأوراق سُوّدت فكان السؤال هل تبقى حبيسة الملف حتى يكتب الله لها ربيعًا تزهر به أم أنها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. فصار القرار بنشرها لعل الله سبحانه يشملها برحمته ليسجلها من الكلم الطيب الخالص لوجهه تعالى.

وهي على ما فيها من إطناب وزيادة قد يوحي للناظر بتكرار للفكرة في المقدمة إلا أنها ضرورية كونها تأسيسية لمعنى الفلسفة وافتراقها عن العلوم الاجتماعية والنفسية واللغوية. فالإشكالية الأساسية هي في اختلاف مفهوم الفلسفة وموضوعها بين ذوي الاختصاص ومدعي الفلسفة، وإعادة تعريفها في ضوء ما عرفها به ذوي الاختصاص مهم جدًا.

هذا، واختيار شخصية أمير المؤمنين عليه السلام إنما كانت لبروزها وانتشارها حتى خارج المحيط الإسلامي، ومناسبتها، إلا أن الكلام يشمل باقي المعصومين عليهم السلام كذلك، فقد أريد به التشخيص لا الحصر.

وملاحظة ختامية، الحديث هنا عن شخصية دينية وعلاقتها بعلم يبحث في مبدأ الوجود بواسطة البرهان، ومن الطبيعي أن العبارات لن تخرج عن دائرة الإيمان سواء من خلال الشخصية التي يتناولها أو من خلال السياق الذي تطرح به، وغير المؤمن تكمن فائدته بشكل أساسي – بعيدًا عن النصوص الدينية ـ في توسيع مدركاته نحو موضوع الفلسفة وحدودها وغاياتها وأنها ليست كما يتم تقديمه الآن على أنها لا يقينيات ولا ثوابت.

والحمد لله ربّ العالمين

علي حمزة زكريا

١٧/ محرم / ١٤٤١هـ

استكشاف الفلسفة

كم مرة قال لك أحدهم العبارة المستهلكة: لا تتفلسف؟ تظنها منقصة؟ للأسف هكذا باتت، تتراوح ما بين المنقصة وما بين لغو الحديث.

على أن الفلسفة مُجدّت في بداياتها كرد عقلي يثبت الحقيقة في مقابل السفسطة حيث لا حقيقة، إلا أنه لم يعد الذهن المعاصر يعرف ما هي الفلسفة، فجعلها سفسطة، حيث لا حقيقة إلا ما شاء الناس أن يعتبروه كذلك، وهذا أمر خلق لوثة لا تزال تعطل التفكير السليم. وهو من عجائب تحوّل الزمان وتبدله.

الفلسفة في واقعها أمر لا بد منه، بل هي – في ذاتها ـ جريان العقل في مسار الفهم، وإن أخطأ بعضهم في تطبيقها أحيانًا. وهي ليست سوى إعادة تموضع للعقل في وضعه الصحيح حتى لا يتجاوز دوره ولا يتعدى حدوده.

فالفلسفة هي البحث عن وجود الشيء والوقوف على علله ومبادئه ومرتبته من الوجود (الطباطبائي،١٤١٤هـ،١١).

وهو ما جعل أحد أبرز أساتذة الفلسفة يشير إليها على أنها ليست سوى الجهد والطلب والاجتهاد من أجل اكتشاف الحقيقة (الديناني، ١/١١).

وهذه الحقيقة هي الحالة العامة للموجود بنحو مطلق بخلاف بقية العلوم، فالفيزياء تبحث في أحوال المادة سائلة أو غازية أو صلبة ولا تبحث في وجودها (العبود، ١٤) ومعنى ذلك أن الغاية المتوخاة من الفلسفة هي معرفة الموجودات على وجه كلي، ومعرفة العلل العالية للوجود – وبالأخص العلة الاولى – وتمييز الموجودات الحقيقية عن الاعتباريات والوهميات (الطباطبائي،١٤١٤هـ،٢٠).

لكن ما هي هذه الحقيقة؟ تتعامل الفلسفة مع أصل مهم جدًا، وهو تمييز الحقيقة عن الاعتباريات والوهميات في ضوء معايير دقيقة (مطهري، ١/٦٥) فالفيلسوف يؤمن بوجود واقع خارج الذهن ويتلقى بعض الادراكات كحقائق تتطابق مع الواقع. وموضوعات مسائل هذا العلم إما تكون موجودة بنفسها في الخارج، كالأجسام

والنفوس والعقول والباري تعالى، أو تكون موجودة بوجود منشأ انتزاعها في الخارج، كالمفاهيم الفلسفية العامة مثل الوحدة والكثرة والعلّية والمعلولية والقِدَم والحدوث وغيرها (البخاتي، ١٣).

وعليه تكون هناك مبادئ ثابتة ومسلّمة يكون الإنطلاق منها في بناء المعرفة وتمتاز بوضوحها وغناها بنفسها عن غيرها، وحاجة الغير إليها دون العكس، وهي تظهر بنفسها في الإنسان حين يصل إلى سن التمييز فيدرك بعقله البسيط امتناع اجتماع السلب والإيجاب وجواز الممكنات العقلية واستحالة المستحيلات وأن الواحد أقل من الإثنين والكل أكبر من الجزء (العابدي، ١١) وهذا هو حد التمييز بين المنطق والفلسفة، فالمنطق هو آلة تضمن صحة المعلومات، والفلسفة هي استخدام هذه الآلة في برهنة المعارف المبتنية عليها. ويوجد هناك عبارة أخرى تُمايز بين المفاهيم المنطقية والفلسفية بأن الأولى صفة للأمور الذهنية وحاكية عنها كقولنا إنسان حيث هو مفهوم كلي له قابلية الانطباق على أكثر من مصداق، أما الفلسفية فهي صفة للأشياء

الخارجية وتحكي عن كيفية وجودها من قبيل العلّيّة والضرورة وغيرها (زاده، ٤٠-٤١).

والهدف من ذلك هو بناء اليقين. فالفيلسوف هو باحث عن الحقيقة في نفسها بنحو يقيني ومطلق وثابت ولا يكون ذلك إلا بالبرهان العقلي الذي يفصل الحقيقة عن الموروثات والظنون والأوهام والاستحسانات الخيالية والشخصية (البخاتي، ١٤-١٥).

إلا أن الاشتراك اللفظي بين المعنى الدقيق للفلسفة والمدارس والآراء الفكرية الأخرى جعل من الفلسفة في مقابل العلم وهو اشتباه مردّه إلى قَصر القضايا الحقيقية على التي يمكن اثباتها عن طريق التجربة الحسية فقط (اليزدي، ١/٥٤-٥٥) وما هذا إلا نتيجة خلطهم ما بين الإدراك الحسي المتغير والإدراك العقلي الثابت، فالأول إدراك يفيدك على سبيل المثال في معرفة ((زيد)) كفرد وعلاقته بباقي الموجودات أما الثاني فيختص بمعرفة ((زيد)) النوع مجردًا عن الزمان والمكان، فوصفك لـ((عمرو تلميذ زيد قبل قرنين)) لا ينفي صحة الكلية الثابتة من ثبوت مفهوم

التلمذة ولو أن القضية من حيث الزمان والمكان لم يعد لها وجود حالي (المصري، ٤٩-٥٠).

وهذه القواعد العقلية يحتاجها الإنسان لأنه ربما أخطأ في نظره فيرى ما ليس بحق حقًّا واقعًا في الخارج، كالبخت والغول، أو اعتقد ما هو حق واقع في الخارج باطلاً خرافيًا، كالنفس المجردة والعقل المجرد، فمسّت الحاجة بادئ بدء إلى معرفة أحوال الموجود بما هو موجود، الخاصة به، ليميّز بها ما هو موجود في الواقع مما ليس كذلك (الطباطبائي، ٢٠١٥، ١/١٨).

ولهذا يؤكد مطهري، في شرحه لأصول الفلسفة على أن اعتماد الفلسفة على العلوم ليس بجعل مسائل العلوم كبرى، بل بجعلها صغرى لقياسه الفلسفي واستنتاج حكم فلسفي منه. وحاجة العلوم إلى الأبحاث الفلسفية تمتد إلى أنّ القطع بصحّة عامّة مسائل العلوم تتوقف على أصول كلية لا يتم البحث عنها إلا بالفلسفة (الطباطبائي،١٤١٤هـ،٦٧).

ولو أردنا اختصار ما مرّ بعبارات عاميّة مبسطة، يمكن أن نقول أن الفلسفة في حقيقتها هي الركون إلى حكم العقل القطعي، وهذا الحكم يأتي من تطبيق القواعد العقلية القطعية في برهنة المعارف. وهذه المعارف ليست مختصة في معرفة أحوال الأشياء بل تعتبر معارف كلية تختص في تنظيم تفكير الإنسان، وتجعله قادرًا على تمييز ما هو صحيح مما هو سقيم من خلال معرفة علل الأشياء ولوازمها ومرتبتها من الوجود، بحيث يستطيع الإنسان أن ينتزع فهمًا سليمًا كليًا يستفيده مما تعطيه العلوم التجريبية، والنقلية، والعقلية المجردة.

ولأن الإنسان كائن عاقل، والتفكير هو طبيعة العقل، كان لزامًا لهذا التفكير أن يكون صحيحًا لأنه هو المائز بينه وبين سائر المخلوقات.

خلاصة:

الإنسان كائن مفكر ومتسائل، ومنذ وجوده تشغله التساؤلات الكبرى: من أين وفي أين وإلى أين؟ وهذه التساؤلات لم يفطر عليها الإنسان ليترك بلا أداة ترشده نحو اجابتها، فكان العقل، والمنطق آلته، تمكنه من عصمة الذهن من الخطأ، والفلسفة هي استخدام هذه الآلة في استكشاف الحقيقة. والحقيقة هي انكشاف الواقع وانطباق ما في الذهن عليه. وهي عملية برهانيّة عقلية.

تأسيس الجناية

لا ترجع الاختلافات بين الناس إلى شيء آخر غير نظرية المعرفة، وهذا التعبير تعبير مسامحي يجعل من أمر المعرفة خاضعًا لمقاييس تجريبية لا تمتلك ميزانها معها، وطالما كانت آلية المعرفة مجرد نظرية، فإن نتائجها لا تتعدى النظرية والافتراض وعليه صارت أمور المعرفة ليست تابعة للحقيقة التي هي كشف الواقع إنما لقدرتها على تقديم اجابات لا يملك أحد آخر ما يخالفها حتى حين.

لقد تم تقديم المعرفة على أنها أمر نسبي، يخضع للمزاج الاجتماعي، أو للهوى الشخصي، أو للمقايسات المصلحية، وتم زراعة ذلك في الأذهان العامة. لا ترى جدالاً لا تتردد فيه الكليشيهات المتكررة: رأيي صواب ويحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب؛ ما أفسد الاختلاف للود قضية، ما تراه ليس ما يراه غيرك، لا أحد يحتكر الحقيقة، وغيرها. وهذا ما جعل من حوارات البشر في القضايا المعرفية الرئيسية في العصر الحديث مجرد حوار طرشان يفتقد للضوابط ولا يمتلك الميزان.

لو اختلفت أنا وصاحبي على وزن كأس ماء، للجأنا إلى الميزان ليقطع النزاع، ولو اختلفنا على عرض وارتفاع طاولة للجأنا إلى شريط القياس وأنهينا الاختلاف، ولو تصارعنا على حق دستوري لجأنا إلى القانون الأساسي لمعرفته، ولكن لو اختلفت معه على حقوق الشواذ جنسيًّا، أو على ضرر الربا لصار لكل منّا وجهة نظر مقبولة ومحترمة حتى يقطع المزاج العام بواحدة منها ومن ثم يتم اعتبارها حقيقة لا يجوز لأحد أن يعارضها وإلا لأصبح محتكرًا للحقيقة ومتطرفًا يقصي من يخالفه وهذه من عجائب قبول النسبية على المستوى النظري، وإنكارها على المستوى العملي!

لقد تم برمجة الأذهان على أنّ التساؤل ليس غايته أكثر من إثارة الغبار، وأن التفكير ليس أكثر من انتقال الذهن من فكرة إلى أخرى، وأن الجدال هو غاية العلم، فمع إثارة الجدال قد تستقر النفس على شيء، فإن استقرت يصبح هذا الشيء هو الحقيقة و لا يضر إن خالفها أحد فكلنا تجفف ملابسنا شمس واحدة، كما يُقال! لكن هذا الأمر يتوقف على أبواب المعامل

حيث ليس هناك وجهات نظر أو شيوع للحقيقة أمام القواعد الرياضية والقوانين الفيزيائية. مورست هنا اللعبة الماكرة، حيث صار العلم يملك ميزانًا لكن في المعامل ومع المواد، أما في العقول فالأمر مسرح ومرعى لأن قدرات الإنسان الذهنية، كما يُراد لها، لا يجب أن يتم التعامل معها بنفس القدر من الانضباط!

خلاصة:

هناك واقع خارجي، وهذا الواقع الخارجي له مفاهيم ذهنية تنطبق عليه، ومن ثم فإن نكران وجود حقيقة ثابتة يعني جحود دور العقل واعتباره مجرد مُمضي للذوق، يطلق أحكامه بناءً على استحسانه.

إعداد سلاح الجريمة

لم يكن تململ امبرتو ايكو من التأويلية المفرطة إلا قضمة قهر لورق الاتهام! (خنصالي، ١٤٣) حتى هذا الأديب الذي تعتمد صنعته الأدبية على المحسنات البديعية والبهارات اللغوية ضجّ من التعامل العام مع النصوص على أنها مجرد عبثيات لا يضبطها شيء سوى رؤية القارئ الذي يجرها بحسب ما يشتهي. لهذا يتكاثر الفلاسفة في عصرنا الحاضر حتى باتوا ينافسون بالعدد الفلاسفة على مرّ تاريخ الاغريق والإسلام مجتمعين.

لا تتفلسف؛ من الناحية الاجتماعية تعتبر هذه الكلمة بمثابة الذم حيث ينشغل مستحقها بالنقاش حول التفاصيل أو إعادة توجيه الحديث نحو وجهة تميل عن القضية الرئيسية التي يراها غيره، فيأتيه الجواب سريعًا بها، ومعناها: لا وقت لترف البحث بالتفاصيل والحديث عن الجزئيات.

لكنها من ناحية أخرى باتت مصطلحًا يُطلق على كل أديب، وشاعر، ورومانسي، بل حتى لاعب الكرة. فالفلسفة في المفهوم

المعاصر هي القدرة على التساؤل، وإثارة الجدل، والاستمرار بطرح الإشكاليات، دون البحث أو السعي عن اجابة، هذا إذا ترفعنا إلى المستوى الأعلى، أما على المستويات الأخرى فالفلسفة صارت شعرًا ونثرًا يعتمد التراكيب اللغوية، وتطرح في سياق عاطفي بصورة عقلية.

اليوم، ترى باولو كويليو مثلاً يُطلق عليه فيلسوف، وترى سام هاريس يُطلق عليه فيلسوف، ولو بحثت عن الجامع بينهما بحيث صارا متقاطعين في الفلسفة، لن تجد. فالأول يأتي بجرعات مسكنة لآلام الإحساس بالعجز والضآلة والاستهلاك، ويركز على العزم والإرادة في تحقيق ما تريد، لكنه في النهاية لا يقول لك: لماذا هذا الإحساس المتملك بالعجز غير القابل للعلاج؟ ولماذا هناك عزم وإرادة لتحقيق أي شيء؟

أما الثاني فهو يجعل من اعتقاداته منطلقًا لفكره، ومهما حاول ارجاع الأمور إلى الوضع التجريبي استنطقت ذاته الكامنة اعتقاداته ليظهرها. تجد ذلك واضحًا في تأسيساته، فهو

يفترض «عدم وجود» لشيء أعلى، ودون برهنة، يبدأ في محاولة لتأسيس الأخلاق والروحانية كأحاسيس ومشاعر هي في البشر على الوضع الافتراضي، ولكن مهلاً، ما هي الفلسفة هنا؟ الواقع، لا شيء، بل منهج تلفيقي يتبنى شيئًا من المنطق ويمازجه بشيء من التجربة، مستندًا إلى ما يعتبره هو حقيقة حيث لا شيء لا يمكن تفسيره بالمادة! ولكن كيف جزم بذلك؟ من خلال التجربة. وهل التجربة تنطبق على غير المادة؟ لا، وهكذا لا تدري هل البيضة سبقت الدجاجة أم الدجاجة سبقت البيضة!

خلاصة:

حين ضاعت بوصلة العقل، وتنازل عن دوره في استكشاف الحقيقة ومعرفتها، وتحول إلى مجرد متذوق أدبي، تحولت الفلسفة إلى صنعة إثارة السؤال أكثر من كونها آلة غايتها إراءة الاجابات وتمييز الحقيقي منها عن الظني والوهمي. فتحول كل أديب وشاعر يعبر عن ضياعه المعنوي أو يبرر لسلوكه العاطفي أو الوحشي إلى فيلسوف.

الجـريـمـة

هذه هي الفلسفة اليوم، جدليات، حوارات، وأسئلة، تدور بمعظمها حول أفكار اجتماعية أو مدارات لغوية أو تأملات صوفية؛ تعتمد اللغة والأفكار والنقض أكثر من الأساس والتركيب.

لقد قادت تلك التحولات الفلسفة إلى غير مقصدها، ولم تعد البراهين المشيّدة هي نتاج الفلسفة بل التساؤلات المحيرة. لم تكتف بذلك بل تحولت إلى شيء آخر. قامت الفلسفة على القواعد العقلية، تبتغي البرهان للوصول إلى الحقائق، احترمت التجربة كونها توصل للحقائق دون التحليل العقلي، فكانت تحتاج للمنطق الصوي لبناء العلاقات واستخراجها، ثم أتت الموجة ونسفت مفهوم العلة والمعلولية بمغالطات لا تخفى على المطلع، ومعها جرفت المنطق الصوري، فظنّ أصحابها أنّ المنطق قد مات وأن الفلسفة انبثقت الآن من قواعد التأملات الخيالية والمقايسات الاجتماعية وفات عليهم أن المنطق أوسع من ذلك، وأنّ التأملات الخيالية إذا دخلت في مجال العلم تحتاج إلى المنطق لربط عناصرها. لم يكن الهاتف الذكي وليد مخيلة

قدر ما هو نتيجة متقدمة لتطور فهم التكنولوجيا والقدرة على ربط عناصرها ربطًا يؤدي بها إلى ابتكار جديد. والأمر كذلك في جميع الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية. لا يمكن البناء على أسس من الهواء.

إنّ «الاستنتاج في العلوم التجريبية ليس وليد البحث التجريبي البحت، بل هو عمل مشترك بين الحس والعقل، يوفر الحسُّ المادة ويقوم العقل بالتحليل والإستدلال البرهاني من اللوازم والآثار إلى المبادئ أو من لوازم إلى أخرى» (ناصر، ٢٠١٤، ٣١٦).

خلاصة:

دخلت الفلسفة في نفق الجدليات والمغالطات ولم تخرج منه. باتت الفلسفة معنية بطرح التساؤلات دون وضع منهج للوصول إلى الاجابات اليقينية، إنما بات يُكتفى بأي احتمال حتى حين يتم نقضه. لقد سلبت الفلسفة عن نفسها قوة البرهان واكتفت بأن تضع مقدمات غير مبرهنة لتستخرج منها نتائج آنية لتصيغها بقالب أدبي رفيع ما يعطيها مهابة زائفة.

لا تخرج الفلسفات المعاصرة عن هذا النفق بل لا زالت قابعة فيه، ورؤية لنتاجات أصحاب الفلسفات الغربية المعاصرة تؤكد هذا الأمر.

آثار الجريمة

حين أصيبت الفلسفة، دخل العقل بغيبوبة. لم يعد العالم الغربي يحترم العقل، هو يحترم التجربة ولا يقول لك كيف يستنبط من التجربة علمًا لأنه يظن أن العمليات الطبيعية الجارية في عقله هي أمر خارج عالم المنطق الصارم. ومع تحولات نظرية المعرفة عندهم نتيجة انصياعهم لهذا الأمر باتت الحوارات أشبه ما يكون بمحاورات الأطفال تقوم على اصطياد الآخر والتلاعب بالمتناقضات وتقديم الأجوبة النقضية أكثر من تأسيس الإجابات الحلّيّة.

لقد أنزلوا الفلسفة حتى باتت بلا مكان بين العلوم الإنسانية، وصار دورها مقصورًا على توضيح بعض المصطلحات الشائعة على الألسن فيخفضون منزلتها إلى معرفة اللغة، أو انهم يعتبرون مهمّتها جعل الفرضيات لحل مسائل العلوم، أو يعدونها من موضوعات علم النفس، وبالتالي يفرغون علم النفس من مضمونه الأصيل. (اليزدي، ٩٨-٢٠٠).

لقد حكم النسبيون على أنفسهم بأنفسهم، حينما نفوا الإدراك المطلق والقواعد الكلية، فلا يحق لهم بعد ذلك إصدار حكم كلي أو قاعدة عامة بنسبية جميع القضايا، إذ يبقى هذا أمر نسبي وخاص ولا ينبغي فرضه على الآخرين، ومع ذلك نراهم يدافعون عن آرائهم ونظرياتهم ويُنّظرون لها في المحافل العلمية ويتعصبون لها ويتهمون كل من خالفهم بالتخلف! (المصري، ٥٢).

لقد أدرك راسل هذه الحقيقة، فقد اضطر وهو يتألم إلى الاعتقاد بأنّ تسعة أعشار ما يُسمّى فلسفة لا يعدو أن يكون لغوًا، وإنّ الجزء الوحيد الذي يتميّز بالدقة والتحديد هو المنطق، وبما أنّ هذا الجزء ينتمي إلى المنطق فإنّه لا يدخل في دائرة الفلسفة. (ناصر، ٢٠١٣، ٨٩)

هكذا، بات الشعراء، والأدباء، والروائيون وكل من يستطيع أن يطرح التساؤلات ويكتبها للهفيلسوفًالله، حتى الدراسات النفسية والاجتماعية والتحليلات الساسية باتت تقدم على

أنها فلسفة وصاحبها فيلسوفًا. امتد الأمر عبر التاريخ وصولاً إلى الشخصيات الماضية، فصار يُعبر عنها بألفاظ الفلسفة وألقاب المتفلسفة، فصار كونفوشيوس وبوذا فلاسفة!

خلاصة:

تحول الأنبياء بسبب ضياع مفهوم الفلسفة إلى فلاسفة، وصاروا حينها على قدم المساواة مع الروائيين والشعراء والأدباء، ومع كل من دعى إلى معرفة ولو كانت بغير طريق صحيح أو منهج منضبط.

وبسبب هذا انتزعت قداسة الشخصيات الدينية وصارت تحاكم لا من حيث منهجها وحقيقتها إنما من حيث ملامستها لرغبات وأهواء الناس، الذين هم صاروا الميزان. فصار ينظر لهم على قدم المساواة مع سارتر وماركس!

وهذه جناية، ليست في حق الدين فقط، إنما في حق العقل الذي تلاعب به المال وبريقه – من خلال حصره بفلسفتين لا تنظران إلا للبُعد الاقتصادي للإنسان ـ حتى أرداه إلى جعله قوة لا تختلف عن غيره من الكائنات يبحث عن قضم الطعام، واجابة الشهوات، ومتابعة صراع البقاء لجَنّة دنيوية[١]!

(١) حصر الإنسان المعاصر بين فلسفتين: اشتراكية ورأسمالية، وكلاهما يرى الإنسان في بُعده المادي الاقتصادي، ولهذا وإن اختلفتا من ناحية الموقف إلا أنهما اتفقتا على أن حركة الإنسان مادية بحتة.

الدين والفلسفة

إن المشكلة المعاصرة ليست في تعظيم العقل، ولا في الركون إليه إنما تكمن المشكلة في تعريف العقل، فليس مجرد استخدام اللفظ دليل على صحة الحكم، ولا ميل النفس لشيء تعني لزوم صحته.

مشكلة هذا العصر مشكلة معرفيّة؛ ما هو العقل؟ وما هو دوره؟ وأين تقف حدوده؟ هذه التساؤلات الثلاث لها إجابات مفصلة لكنها تحتاج لمعرفة وانتباه. كل البشر يعرفون نصف الأربعة، ويستطيعون جمع الشيء إلى مثله لكن هذا لا يجعل منهم رياضيين، والقدرة على القراءة لا تجعل منهم أدباء. هذه صناعات أسسها قد تكون مرتكزة عند الناس جميعًا لكن البناء عليها يحتاج لصقل ومتابعة.

العقل هو قوة في النفس يُدرك بها المعاني الكلية، وآلة هذه القوة الدماغ. والتعقل هو المرتبة العليا من مراتب الإدراك وهو المائز بينه وبين سائر الحيوانات. وعلى ضوء هذه المدركات يتكامل الإنسان حيث ينتقل من تمييز الحق من الباطل

والصواب من الخطأ إلى معرفة أفعاله الاختيارية وإلتزامها. وهذا العقل ينقسم إلى عقل نظري يدرك به القضايا الكلية بذاته والجزئية بمعونة آلاته من حسّ وغيرها، ويتفاوت في إدراكه ما بين العقل البسيط الذي هو الفطرة التي يدرك بها القضايا البديهية والعقل المركب الذي يدرك به الأشياء من خلال الاستدلال. وعقل عملي له قوة الإدراك الكلية من نحو حسن العدل وقبح الظلم (العابدي، ٤٦-٤٧).

وعليه، في بعض الأمور يكون للعقل بذاته القدرة على إدراك الملاكات بتوسط الحواس أو العلوم التجريبية، وأحيانًا يكون له القدرة على الإدراك مستقلاً بذاته، وهناك قسم آخر لا يمكن إدراكه لا بالعقل ولا بالحس إنما يحتاج إلى الوحي بتوسط النبي (زاده، ١٠٠).

ولهذا نرى شخصًا مثل ابن سينا، يؤكد على أنّ المعاد مثلاً ((منه ما هو منقول من الشرع ولا سبيل إلى اثباته إلا من طريق

الشريعة وتصديق خبر النبوة» ومنه ما هو «مدرك بالعقل والقياس البرهاني وقد صدقته النبوة» (ابن سينا، ١/٤٢٣).

وهو ما يدلّك على أن للعقل حدودًا، لا لعجزه إنما لأن طبيعته الحكم بواسطة الملاك، فإن غاب عنه الملاك لم يعد من شأنه الحكم بل يركن إلى ما يفيده الإطمئنان (وهو الإطمئنان العقلائي المتاخم لليقين). ولهذا يجب على العاقل أن يبحث عن الطريق المأمون لسلامة فكره وصحته.

وبالتالي إذا لم يكن عند العقل ما يُؤمّن الدراية بماهية المعرفة التي يحصلها، من خلال الدراية بالطريق الذي يوصل إلى الحقيقة والصواب وإلى تجنب ما يسبب الخطأ والاشتباه فإن المعرفة المحصلة لن تكون أكثر من ظنون لا يُعرف صحتها من فسادها (ناصر، ٢٠١٨، ٤٩).

والعقل البرهاني بعد أن اثبت وجود مبدأ إلهي حكيم قدير لطيف خبير، وعرف من ذاته عجزه عن ملأ هذه المنطقة الواسعة التي يحتاج إليها لتكامله، أدرك ضرورة إرسال الرسل

وإنزال الكتب لهداية الإنسان إلى طريق الكمال وذلك بالمعارف الجزئية التفصيلية والاحكام الشرعية. فالعقل يدرك وجوب المعاد لكنه لا يملك السبيل إلى تفاصيله ويدرك حسن العدل لكنه يجهل الكثير من مصاديقه، ويدرك وجوب شكر المنعم لكنه لا يعلم طريقته المَرْضِية ولان العقل أوجب طاعة المولى تبيّن حاجة العقل إلى الوحي، فالعقل دوره اثبات الأصول الكلية للدين واثبات صحة مبانيه الكلية، أما الأحكام الظاهرية فيحكم العقل بحجيتها في مقام العمل والامتثال (المصري، ١٨٢-١٨٥).

ومن هنا وجب أن تكون تلك الشريعة والقانون مُنزلة من المبدأ الأول بمقتضى علمه وعنايته سبحانه، فهو العالم بجميع ما يصلحه ويضره إذ هو عالم بحقيقة الروح وما يسعدها وما يشقيها، وعالم بحقيقة العقل وما يكمله وكذا بالجسد (البخاتي، ١١٥-١١٧).

خلاصة:

الحقيقة الغائبة أن الفلسفة ليست في مقابل الدين كما يتم تقديمها، بل هي في واقع الحال في حال تخادم مع الدين.

ازدراء الفلسفة بتحويلها لسفسطة جعلها أداة تبرير للموبقات في مقابل القيم الدينية، ومعول هدم لكل أساس سليم يُقرّه العقل القطعي ويُرشد إليه الدين.

الفلسفة لها غاية، وهي إثبات الواقعية، وإثبات القوانين الكلية (التناقض، العلّية، الهويّة، استحالة الدور والتسلسل)، ودورها مع باقي العلوم هو احتياج العلوم إلى هذه القوانين للتصديق بمسائلها؛ ولكن حينما تحولت الفلسفة إلى سفسطة بلا قوانين ولا ضوابط صارت مجرد اثارات لا علاقة بأي اثبات أو تصديق لأي حكم. ولهذا لا يمكن اعطاء الاعتبار لأي منهج أو طريق – كما هو حاصل الآن – طالما أنّ هذا المنهج لا يملك حجيته المبرهنة.

الثوب الجديد

للشخصيات التاريخية

لم يعد الأمر بعد الجريمة التي ارتكبت، صادمًا، صار الكتاب والأكاديميون يقدمون شخصياتهم التاريخية بألقاب الفلاسفة.

مرّ علي عدة أشخاص ينقلون أقوالاً مترجمة للإمام علي عليه السلام بلغات غربية ثم يعرفونه بأنه شخصية دينية وفيلسوف مُسلم ويقدم رؤى فلسفية وكأن صياغة الألقاب عندنا فيها نقص أو عيب بحيث نضطر إلى الاستعانة بألقاب غربية اخترعوها لمن عجزوا عن فهم ما يقوله لنقدّم بها عظماءنا.

- **<u>ولكن هل كان أمير المؤمنين عليه السلام فيلسوفًا؟</u>**

أظن، وهذا الغالب، أن اللوثة المعاصرة لمفهوم الفلسفة ومعناها باتت متجذرة في العقول، حيث صار كل من تتناقل أقواله، وتُثمّن أفكاره فيلسوفًا، وكل من قورن بين معاني كلماته وأطروحات الفلاسفة – سيما الغربيون منهم – استخرج له سياق فلسفي! حتى في الشخصيات المعاصرة يمكن ملاحظة ذلك

بوضوح، فقط ابحث في الانترنت عن عبدالوهاب المسيري أو مصطفى محمود أو علي عزت بيغوفتش وسترى ألقاب الفلاسفة تسبق أسماءهم.

ليس الإمام علي عليه السلام عن ذلك ببعيد في الأذهان المعاصرة، ولكن هل هو كذلك؟

التاريخ يخبرنا أن التراث المنقول من كلمات وخطب وحكم الإمام علي عليه السلام جعلت منه شخصية فريدة، وميّزته عن غيره حتى عند غير المعتقدين بإمامته، بعلو مكانته وسمّو ذاته. فكان له من بلاغة الجاهلية ومن سحر البيان النبوي ما حدا بعضهم إلى أن يقول في كلامه إنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق (جرداق، ١٠). وهو ما جعله عرضة لكل لقب يرى فيه عوام الناس مدحًا وهم غافلون.

سأله الحبر اليهودي، أنبي أنت؟

فقال عليه السلام: وَيْلَكَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله (الكليني، ١/٨٩)

ويصف علاقته بالنبي الأكرم محمد صلى اللّه عليه وآله بقوله: ﴿ولقد قرن الله به من لدن كان فطيمًا أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت معه أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم علمًا من أخلاقه، و يأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول اللّه وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي و الرسالة، وأشم ريح النبوة﴾ (الرضي، ١٨٩).

وقد ورد عن النبي الأكرم صلى اللّه عليه وآله ((أنا مدينة العلم وعليّ بابها..)) (الأميني، ٦/٧٨-٧٩).

وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: نزل جبرائيل عليه السلام على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله برمانتين من الجنة فأعطاه إياهما فأكل واحدة وكسر الأخرى بنصفين، فأعطى عليًا عليه السلام نصفها فأكلها، فقال: يا علي أما الرمانة الأولى

التي أكلتها فالنبوة ليس لك فيها شيء، وأما الأخرى فهو العلم فأنت شريكي فيه. (الكليني، ١/١٩٠)

هذه النصوص، وما لم يُذكر منها أضعافها، تعيد صياغة شخصية الإمام علي عليه السلام بلسانه، وتضعه -كشخصية- في سياقها الصحيح. هدفها هو إبراز الجانب الحقيقي وهو أن الإمام علي عليه السلام ليس فيلسوفًا، ولا متفلسفًا، ولا هو شخصية بالإمكان النظر إليها دون السياق الديني، فليس هناك نبي بلا دين، ولا إمام بلا نبي.

إنما هو مخزن علم أُخذ من قناة أرفع وأجل من قناة العقل، وأوسع وأشمل من هذا الوجود المادي، وهي قناة الوحي. ولّما كان شأن الإمام هو الهداية بمعناها الخاص (الخباز، ١/٤٨) فإن هذا يعني ضرورة كونها محور الاتصال بين الأرض والسماء، فدائمًا يوجد من يمثل تلك الصلة الروحية والمعنوية ولا تخلو الأرض منها كرابط بين قناة الوحي وقناة العقل (السند، ١/٢٥٤).

ويتبدى هذا ظاهرًا في اشاراته لنفسه، حيث يقول: أيها الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها، وتذهب بأحلام قومه (الرضي، ٢/١٣٠) **وهو ما ذكره ابن حنبل في فضائله: لم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يقول: سلوني، إلا علي بن أبي طالب.**

وهو القائل قبل وفاته: غَداً تَرَوْنَ أَيّامِي وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي.

وهو الواصف نفسه: يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلاَ يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ.

خلاصة:

عظمة التراث المنقول عن الإمام علي عليه السلام، وما فيه من بلاغة وحكمة جعله مصداقًا في أذهان الكثير من عامة الناس للقب الفيلسوف بعد أن صارت الفلسفة ليست أكثر من قدرة على طرح الأسئلة وسبك العبارات الأدبية والحكم الحياتية؛ لكن هؤلاء غفلوا عن أن الإمام علي عليه السلام لا يمكن تجريده من هويته وسياقه، وهي أنّه نقطة إلتقاء مع قناة الوحي النبوية، وأن ما يملكه هو فرع العلم النبوي الوحياني وهو ما يعطيه مائزًا عن غيره: أنّه لا يُوّلّد العلم بالتحليل والتركيب إنما يتلقاه من مصدره ومعدنه، ما يجعل لكفه العلوّ على غيره.

الختام:

المنهج والفلسفة

هنا مقدمة يجب تأسيسها، اللّه سبحانه وتعالى هو المالك للحقائق أجمع، والمالك للهدى كله، له الحق بردع الإنسان عن سلوك ما، أو طريق معين حتى ولو كان قاطعًا بصحته وموصليته إلى الحق لسبب وهو محدودية الإنسان في مقابل إحاطة اللّه سبحانه.

وقيمة كل حكم أو قطع تأتي من قيمة المنهج، وقيمة الطريق هي من تعطي للنتيجة القيمة. فليس لليقين والقطع حجة في نفسه بمعزل عن مناشئه وطرقه، ولهذا ردع الشارع مثلاً عن القياس وغيره. ومن هنا يتضح أن هناك فرق بين اليقين الحاصل من الوحي، واليقين الحاصل من العقل، وأن حجية اليقين الثاني إنما هي ذاتية في كلياتها، وممضاة في جزئياتها من الوحي، فحجيتها مبنية على حجية الوحي، وهو ما يجعلها أضيق دائرة، وأقل قيمة منه.

وهنا يفترق الفيلسوف عن غيره، ويتمايز المرتبط بقناة الوحي عن اللاجيء لبراهين الفلسفة. وهو ما أشار له الأصوليون من

كونه أنه لا يكتفي الاستناد إلى حجة مُعذّرة بنفسها إذا كانت هناك حجة أعلى منها.

وهو ما يرشدك إلى أن الفلسفة من غاياتها صياغة الرؤية الكونية للإنسان من طريق إثبات المبدأ الأول وصفاته الجمالية والجلالية، وهو ما يجعلها في غير كُلياتها محتاجة إلى الوحي في معارفها.

تم بحمد اللّه.

المصادر

ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله. الشفاء. منشورات ذوي القربى. ١٤٣٤ هـ.

الأميني، عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دارالكتاب العربي، ١٣٩٧ هـ.

البخاتي، سيد سعد. مبادئ الرؤية الكونية. دار الحجة للثقافة. ٢٠١٢.

جرداق، جورج. روائع نهج البلاغة. الغدير للطباعة والنشر والتوزيع. ١٩٩٦.

الخباز، السيد ضياء. الإمامة الإلهية بين القرآن والبرهان: الإمامة الإلهية في الفكر الشيعي. ٢٠١٩.

خنصالي، سعيدة. أمبرتو إيكو: في نقد التأويل المضاعف. منشورات ضفاف. ٢٠١٥.

الديناني، غلام حسين إبراهيم. حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي. دار الهادي. ٢٠٠١.

الرضي، الشريف. نهج البلاغة.

زاده، محمد حسين. مدخل في نظرية المعرفة وأسس المعرفة الدينية. دار الهدى للدراسات الحوزوية. ٢٠١٣.

السند، الشيخ محمد. الإمامة الإلهية. الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع. ٢٠١٢.

الطباطبائي، السيد محمد حسين. أصول الفلسفة، مؤسسة الإمام الصادق (ع) للتحقيق والتأليف. ١٤١٤هـ.

الطباطبائي، السيد محمد حسين. بداية الحكمة، مؤسسة التاريخ العربي. ٢٠١٥.

العابدي، فلاح. البخاتي، سيد سعد. مناهج التفكير. أكاديمية الحكمة العقلية. ٢٠١١.

العبود، الشيخ علي. محاضرات تمهيدية في الفلسفة. نور للدراسات الإسلامية. ٢٠٠٨.

الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق. الكافي. دار المرتضى.

المصري، أيمن. أصول المعرفة والمنهج العقلي: الأميرة للطباعة والنشر، ٢٠١٢.

مطهري، مرتضى. أصول الفلسفة والمنهج الواقعي. المؤسسة العراقية للنشر والتوزيع.

ناصر، محمد. الفلسفة: تأسيسها، تلويثها، تحريفها. أكاديمية الحكمة العقلية. ٢٠١٣.

ناصر، محمد. القانون العقلي للسلوك: المبادئ – الأسس. ومضات للترجمة والنشر. ٢٠١٨.

.ناصر، محمد. نهج العقل: تأصيل الأسس وتقويم النهج، أكاديمية الحكمة العقلية. ٢٠١٤.

اليزدي، محمد تقي مصباح. المنهج الجديد في تعليم الفلسفة. دار التعارف للمطبوعات. ٢٠٠٧.

ملاحظة: قد تختلف بعض صفحات المصادر عن الموجودة هنا لاختلاف الطبعات.